عنوان المداخلة: النزعة المقاصدية للدرس الحديثي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال مجالس التذكير من الحديث البشير النذير

د.حواس جابري

djabrihaoues@gmail.com

The purposive approach to Hadith studies by Sheikh Abdul Hamid bin Badis, as demonstrated in his sessions of remembrance from the .Hadith of the Prophet (peace be upon him)

عنوان الملتقى الوطني: الدرس التفسيري والحديثي عند جمعية علماء جمعية العلماء المسلمين –الجهود والمناهج والاتجاهات–

يومي:الثلاثاء والأربعاء 25-26رجب 1445هـ الموافق لـ06-07فيفري 2024م.

كلية أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر

نص المداخلة:

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد؛

فهذه المداخلة تحاول الكشف عن الأبعاد المقاصدية التي تضمنها الدرس الحديثي الباديسي من خلال شرحه "مجالس التذكير من كلام البشير النذير"، وتناولها بالدراسة والتحليل في ضوء أحكام الشريعة ومقاصدها، وبيان مدى مساهمتها في خدمة السنة النبوية فقها وتنزيلا.

فقد أولى الشيخ ابن باديس السنة النبوية اهتماما بالغا ؛ لما تكتسيه من أهمية في مجالات التشريع، والإصلاح المختلفة، وذلك من خلال الدرس الحديثي بمنهجية علمية خاصة تمكنه من تحقيق أهدافه التي تعد أهدافا جزئية تندرج ضمن الأطر الإصلاحية الكبرى للمشروع النهضوي.

ومن أجل تحقيق تلك الأهداف المتوخاة من الدرس الحديثي؛ فقد سخر ابن باديس على غرار سلفه من الشراح كل الأدوات والآليات المعرفية، والمنهجية التي تمكن من الإحاطة بظاهر النص وروحه.

وبهذا يُعادُ للسنة دورها الفعال في الحياة الدينية الشاملة، باعتبارها المصدر الثاني للتشريع،وفق رؤية مقاصدية تمكن من تجاوز مزالق الجمود على الظاهر، وجناية التأويل الفاسد إلى الفهم الصحيح للنص النبوي.

ونظرا للانحراف الذي أصاب فهم السنة في عصر ابن باديس وما نتج عنه من آثار بالغة الخطورة من انتشار البدع والخرافات،لم يكن بد من إحياء الأمة الجزائرية انطلاقا من تجديد الدرس الحديثي.

ولعل من الآليات التي انتهجها الإمام عبد الحميد بن باديس في عرض الدرس الحديثي في سياق مشروعه النهضوي آلية التفعيل المقاصدي،الذي ينطلق أساسا من تحقيق المقصد العام للشارع وما يتفرع عنه من مقاصد خاصة وجزئية.

الإشكالية:

ولقد جاءت هذه المداخلة أجل الكشف عن النزعة المقاصدية في الدرس الحديثي لابن باديس، وإبراز أهم معالمها ومحاورها الكبرى، وما نطوى تحتها من آليات الفهم المقاصدي للسنة النبوية، التي من شأنها أن تسهم في تزويد المتعامل مع السنة النبوية بقواعد، وضوابط تعصمه من مزالق الإفراط والتفريط في مجال الفهم، وتعينه على تجاوز مشكلات التطبيق والتنزيل الواقعي للسنة على الواقع العلمي والعملي.

أما الإشكالية التي تسعى هذه الورقة البحثية للإجابة عنها تكمن في التساؤل التالي:

ما أبعاد النزعة المقاصدية للدرس الحديثي عند ابن باديس، وما أثرها في التعامل مع السنة النبوية؟

وتتفرع عنها التساؤلات التالية:

ما أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بفهم الحديث؟

ما أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بتنزيل الحديث؟

ما أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بمشكل الحديث؟

عنوان المداخلة:

وللإجابة عن هذه الإشكالية تم بحث الموضوع تحت عنوان

" **النزعة المقاصدية للدرس الحديثي عند الشيخ ابن باديس من خلال كتابه مجالس التذكير من حديث البشير النذير**"

أسباب اختيار الموضوع:

وكان وراء بحث هذا الموضوع عدة أسباب، أهمها:

- ✓ كون شرح ابن باديس من الشروح المتميزة في منهجها ومضمونها وأهدافها، وهذا ما يدعو لدراسته والاستفادة منه في مجال الفهم الصحيح الوسطي للسنة.
- ✓ إبراز الأبعاد المقاصدية من خلال هذه الدراسة، لما لها من أثر على الفهم الصحيح للسنة.
- ✓ الوقوف على آليات تطبيقية لمقاصد الشريعة على مستوى الفهم والتنزيل.

- ✓ التعرّف على مدى وفاء الدرس الحديثي لآليات المقاصد التي تحقق روح النص، وعدم الجمود على ظاهره.

1. أهمية الموضوع:

وتتجلى أهمية هذه المداخلة في:

- ✓ الكشف عن الشخصية المقاصدية الباديسية.
- ✓ إبراز أهم الأبعاد االمقاصدية في الدرس الحديثي عند ابن باديس
- ✓ إظهار دور ابن باديس في ترشيد فهم السنة من خلال تفعيل آلية التكامل المعرفي الحديثي المقاصدي.
- ✓ التعرف على ملامح المنهج الباديسي الخاص في الدرس الحديثي.
- ✓ السعي لبعث النزعة المقاصدية في الدرس الحديثي.

الخطة:

وجاءت الخطة كالتالي:

مقدمة:

المطلب الأول: أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بفهم الحديث.

المطلب الثاني: أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بتنزيل الحديث.

المطلب الثالث: أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بمشكل الحديث.

خاتمة:

المطلب الأول: أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بفهم الحديث.

لقد سلك إبن باديس مسلكا فريدا في إبراز النزعة المقاصدية من خلال فهم الحديث نبرزها في النماذج التالية:

1.نص الحديث:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، أخرجه الشيخان في صحيحهما[1]

نلاحظ أن ابن باديس قد تحرى صحة الحديث وهذا أمر مهم جدا في إبراز المقاصد النبوية حيث لايمكن استخراجها من أحاديث ضعيفة وموضوعة

2.الألفاظ:

[1]- رواه البخاري،برقم:01،مسام برقم،أبودود برقم: 2201.

(الأعمال): هي الأفعال التي تصدر عن الجوارح فتدخل فيها الأقوال والغالب أن الأعمال أخص من الأفعال، فهذه فيما كان عن قصد وغيره وتلك فيما كان عن قصد. (النية): هي القصد إلى الفعل. (الهجرة): الترك والمراد هنا مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوف الفتنة على الدين بالمنع من إقامته. (يصيبها): يحصل عليها. (ينكحها): يتزوجها[2].

لقد بين غبن باديس الألفاظ بيانا شافيا وهي خطوة مهمة في فهم الحديث زمن ثم استستنباط الدرس المقاصدي منه.

3.التراكيب:

بالنيات يتعلق بمحذوف تقديره معتبرة، ودل هذا المتعلق الخاص ما جاء بعده من التفصيل بين الهجرتين والمقام الذي ألقى فيه الكلام، كما سنبينه في مورد الحديث. ونظيره في هذا التقدير قولهم: المرء بأصغريه قلبه ولسانه أي معتبر بهما.

والمرء بأدبه أي معتبر أو يعتبر به والباء سببية، وإنما للحصول والمحصور فيه هو الجار والمجرور، وما أفادته الباء من معنى السببية أي لا سبب تعتبر به الأعمال إلا النيات نظيره إنما زيد قوي بقومه أي لا سبب لقوته إلا قومه. فأفاد التركيب حصر اعتبار الأعمال في نياتها والمقصود بها لا في صورها وظواهرها. ولكل امرىء خبر ما نوى أي نواه قدم عليه ليحصر فيه بإنما فأفاد التركيب أن حظ كل عامل من عمله هو ما قصده أي عين ما قصده في كميته ومقداره دون ما لم يقصد. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله أي قصدا فهجرته إلى الله ورسوله أي وقوعا واعتبارا ففعل الشرط وجوابه لم يردا على معنى واحد، ومثل هذا يقال في الشرط الثاني وجوابه وذكر تزوج امرأة بعد دنيا يصيبها تخصيص بعد تعميم لأن ذلك الخاص هو سبب الحديث. واللام في الدنيا لام الأجل والعلة فتفيد أن طلب الدنيا أو طلب التزوج هو العلة الباعثة له دون قصد طاعة الله فلا يدخل فيه ما إذا كان الباعث هو الطاعة، وطلب هذه الأشياء، جاء على سبيل التبع[3].

لم يكتف ابن باديس بالمفردات اللغوية بل تعدى ذلك إلى دراسة التراكيب والبلاغة وهي من الصنعة اللغوية المهمة في فهم المقاصد النبوية.

4.سبب الورود[4]:

---

[2]-مجاس التذكير،ص58.

[3]-مجالس التذكير، ص58.

[4]-ينظر: معجم المصطلحات، الطحان، ص7.

أورد ابن باديس سببا لورود الحديث فقال القسطلاني: قد اشتهر أن سبب هذا الحديث قصة مهاجر أم قيس المروية في المعجم الكبير للطبراني بإسناد رجاله ثقات من رواية الأعمش. ولفظه: (عن أبي وائل عن ابن مسعود قال كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها. قال: فكنا نسميه مهاجر أم قيس)[5].

وسبب الورود كسبب النزول يعين على فهم المرادات والمقاصد البوية ويزيل كثيرا من الإشكالات غير أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المطلب الثاني: أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بتنزيل الحديث.

بعد أن تطرق ابن باديس لمسائل تتعلق بفهم الحديث شرع في بيان أمور تتعلق بفقهه وتنزيله من خلال جملة من العناصر الدرسية منها:

1.النية شرط لقبول العمل[6]

قال ابن باديس:" أفاد الحديث أن العمل الديني لا يكون مقبولا حتى تقصد به طاعة الله وإن من قصد به غير ذلك فعمله مردود عليه وأن أجر العامل يقل ويكثر على حسب نيته بعمله، وأنه يمكنه أن يقصد مقاصد كثيرة من الخير بعمل واحد، فيتضاعف ثوابه عليه بحسب نيته وإن لم يقع ذلك فعلا بعمله، كقصد إرشاد الضال في المسجد ولم يجده، أو تعليم الجاهل ولم يلقه، وقصد الجهاد من الهجرة ومات قبله، وأمثال ذلك كثيرة"[7].

فبين من خلال كلامه أصل قبوا العمل وهو كونه خالصا لوجه الله كما أن الية تؤثر على مضاعفة الأجور .

2.أثر النية على المباحات:

يقول ابن باديس"كما أثرت النية في الأفعال التعبدية بالقبول والرد أو بتفاوت الأجر، كذلك تؤثر في الأعمال المباحة، فإن المباحات في نفسها لا يثاب ولا يعاقب عليها ولكنها بالنية والقصد منها يدخلها ذلك وتلحق بما أريد منها إلحاق الوسائل بمقاصدها. فالمشي- مثلا- مباح وقد ينوي به الذهاب إلى التعلم فيصير عمل طاعة فيثاب عليه ولو لم يجد المعلم فلم يتعلم، وقد ينوي

---

[5]-مجالس الذكير،59.

[6]-ينظر تفصيل النية، عقيدة المسلم، القحطاني،ص576،ج2.

[7]-مجالس التذكير،ص60.

به الذهاب إلى السرقة فيصير عمل معصية فيأثم به وإن حيل بينه وبين ما قصد فلم يسرق وكذا سائر المباحات".

وهذا تنزيل مهم يجعل الإنسان يسارع في الخيرات ويكثر من الصالحات فيجعل حياته كلها طاعة ويحولها إلى عبادة.

3.اثر النية على الإخلاص والإنجاز:

يقول ابن باديس في هذا الصدد:"كما علينا أن نجتهد في تطهير أعمالنا من المخالفات وقصرها على الطاعات والمباحات -كذلك علينا أن نجتهد في طاعتنا أن تكون خالصة لوجه الله، وأن نبعد عنا كل خاطر يلفتنا إلى غيره حتى يسلم لنا القصد كله خالصا والعمل كاملا، أو يسلم لنا القصد الأول الذي هو شرط القبول، فإذا كان شيء آخر بعده يكون لاحقا وتابعا، وأن نتفقه ونتدبر بعد ذلك في نيتنا بطاعتنا فنوفرها ونستثمرها ونقصد بها ما حضرنا من وجوه الخير التي يمكن أن تقصد بها. وأن ننظر مثل ذلك في أعمالنا المباحة كأكلنا وشربنا ونومنا ومشينا وراحتنا ورياضتنا، فنقصد بها الاستعداد للطاعات والتقوى لفعل الخيرات وكل ما يمكن أن تؤدي إليه أو تعين عليه من معروف، فتصير أعمالنا المباحات من قسم الطاعات، فما أسعدنا حينئذ وما أعظم ثروتنا من الخير.

نحن لا نسلم من مخالفة وتقصير وفي ذلك علينا خسار كثير ولا يجبر ذلك الخسار إلا بسلوك هذا الطريق الشرعي القويم".

واستحضار النية في الحياة يمكن العبد من استثمار حياته كلها في طاعة الله فيزيد انتاجه الديني والدنيوي فينفع نفسه وغيره.

4.النية لا تصلح العمل غير المشروع:

لقد حذر ابن باديس من فهم غير صحيح وهو اعتقاد ابعض أن الية تصلح العمل الفاسد فيقول:" الأعمال إما طاعات لأنها مأمور بها وجوبا أو استحبابا وإما مخالفات لأنها منهي عنها تحريما أو كراهة، واما مباحات لأنها غير مأمور بها ولا منهي عنها. فالمخالفات بقسميها لا تقبلها النيات طاعات لأنها في نسمها غير عمل صالح ولأننا علمنا بالنهي عنها، أن قصد الشارع هو تركها وعدم وجودها، فقصد المكلف مضاد لقصد الشارع فكان ساقطا لا عبرة به ولا أهلية له لقلب الموضع الشرعي .. والطاعات بقسميها هي التي تؤثر فيها النية بالقبول والرد بحسب قصد

الله بها وقصد غيره أو بتفاوت درجات القبول وبحسب المقصود على ما تقدم وهي المقصودة بالقصد الأول من الحديث"[8].

فالمباحات مثلها تؤثر فيها النيات فتقبلها طاعة أو معصية لأن الشرع لما أباحها علمنا أنه لا قصد له لا في وجودها ولا في عدمها من حيث ذاتها، فكان لقصد المكلف حينئذ سبيل إلى التأثير فيها.

وقد غفل عن هذه الحقيقة أقوام- عفا الله عنهم- فتراهم يستدلون على أعمالهم بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى» قاصدين إلى تبريرها غير ملتفتين إلى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات أو المباحات. وكثيرا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج إلى الأضرحة وإيقاد الشموع عليها والنذور لها وكالرقص وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات

ويتوكأون في ذلك كله على (إنما الأعمال بالنيات). كلا، ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب فإن البدع كلها من قسم المخالفات وأن المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات.

المطلب الثالث: أبعاد النزعة المقاصدية المتعلقة بمشكل الحديث.

لقد تشكل بعض المعاني في الأحاديث فيزال الإشكال بفهم المقاصد وخير دليل على ذلك فهم مقصد السائل وإجابته وفق مقصده كما حصل من قصة القاتل مئة نفس.

قال عليه وآله الصلاة والسلام: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فقال: فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبده معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة

[8]-مجالس التذكير،ص61.

آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»[9].

أورد ابن باديس هذا الحديث وبين منه قضايا تتعلق بأهمية العلم في إزالة الإشكال وتحقيق المقصد منها:

1.خطورة الجهل بالمقصد في الفهم :

فقال:" الراهب: هو العابد وكانت الرهبنة فيمن قبلنا بالانقطاع عن الناس والتفرغ للعبادة، ابتدعها أهلها دون أن يكتبها الله عليهم كما في سورة الحديد. ثم جاء الإسلام فشرع الجمعة والجماعة فأبطل الانقطاع عن الناس للعبادة إلا من فر بدينه أيام الفتنة خوفا على نفسه منها. والعالم من له دراية وملكة واشتغال بالعلم، والمقابلة ما بينهما في الحديث تقتضي أن الراهب لم يكن عنده من العلم ما يقال في صاحبه عالم. والعالم لم يكن عنده من الانقطاع للعبادة ما يقال في صاحبه راهب. قال الإمام محمد السنوسي- رادا على الأبي-: تسمية النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- الرجل الثاني بالعالم والأول بالراهب يدل على أن الراهب ليس بعالم، والحجة فيما دل عليه لفظه صلى الله عليه وآله وسلم من أن كل واحد إنما ثبت له في نفس الأمر معنى الوصف الذي أطلقه عليه، وأما دلالة الدال على الراهب وهو إنما سئل عن العالم فليس فيه دليل على أن الراهب كان عالما لاحتمال أن يكون الدال رجلا جاهلا، ولا يعرف العالم إلا من هو عالم، لا سيما والرهبانية كثيرا ما يعتقد الجهلة ملازمتها للعلم. والترهب إن سلم أنه يقتضي العلم فإنما يقتضي العلم بما يحتاج إليه في ترهبه وإلا فكم من مترهب جاهل"[10].

فمن المهم الفصال بين العبادة والزهد والعلم فقد يكون الرجل مستقيما ولكن لايحمله ذلك على التجرؤ على الفتيا وإرشاد الناس فيضر أكثر مما ينفع.

2.العلم وسيلة إزالة الإشكال:

قال ابن باديس في هذا الصدد: "في الحديث لزوم السؤال للجهال. وفيه أن أهل العلم هم الذين يسألون عنه لا غيرهم وإن كان أكثر عبادة، ولذا قال مالك رحمه الله: (لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه معلن السفه، وصاحب هوى يدعو إليه، ورجل معروف بالكذب في حديث الناس وإن كان

---

[9]-رواه مسلم برقم، 4967 ، رواه ابن حبان برقم: 611،

[10]- مجالس التذكير،105

لا يكذب على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ورجل له فضل وصلاح لا يعرف ما يحدث به)، ذكره ابن عبد البر في جامع العلم. وفيه صحة توبة القاتل وهو مذهب جمهور السلف وهذا الحديث من أدلتهم".[11]

لذلك جاءت أحاديث كثيرة تبين فضل العالم منها،ما رواه الترمذي عن عن أبي أمامة الباهلي قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير[12]

3.العلم تحصين من الضلال والزيغ:

استشهد ابن باديس على هذه القضية بما جاء في حديث رواه الترمذي وابن ماجة وغيرهما عن ابن عباس– رضي الله عنهم– وخرجه ابن عبد البر في جامع العلم عنه وعن أبي هريرة– رضى الله عنه– أن فقيها واحدا أشد على الشيطان من ألف عابد. وواقع هذا حديثنا مما يشهد لذلك، فقد رأيت ماذا جر الراهب على نفسه وعلى غيره، وكيف أنقذ العالم ذاك الشرير من الهلاك[13].

خاتمة:

في نهاية هذه المداخلة نخلص إلى النتائج التالية:

1.ابن باديس شخصية جمعة كثير من الخصائص المعرفية التكاملية.

2.أهمية الشرح البديسي وتعدد أبعاده لاسيما المقاصدية.

3.أهمية توظيف المقاصد في فهم السنة وتطبيقها

4.ضرورة التكامل بين علمي الحديثوالمقاصد وغيره من العلوم الشرعية

5.الروح التجديدية المقاصدية في الشرح الباديسي

6.بروز خاصية الأصالة والمعاصرة في الشرح الباديسي المقاصدي

---

[11]-مجالس التذكير،105

[12]-رواه الترمذي برقم: 2609.

[13]-مجالس التذكير،106.

المراجع:

1. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ

2. سنن أبي داود أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ) المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت

3. عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسُّنَّة – المفهوم، والفضائل، والمعنى، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، والنواقض د. سعيد بن على بن وهف القحطاني

الناشر: مطبعة سفير، الرياض

توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض

4. معجم المصطلحات الحديثية محمود أحمد طحان

5. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى : 354هـ) ترتيب : علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي، المنعوت بالأمير(المتوفى : 739هـ)

الناشر : مؤسسة الرسالة

6. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى : 261هـ)

7. مجالس التذكير من حديث البشير النذير عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ) الناشر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية الطبعة: الأولى، 1403هـ - 1983م